

غاية العبادة في الإسلام أو لماذا نعبد الله؟

- لماذا نعبد الله؟
- العبادة غذاء للروح.
- العبودية لله سبيل الحرية.
- العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان.
- العبادة حق الله على عباده.
- العبادة طلبًا للثواب وخوفًا من العقاب.
- هل العبادة مجرد وسيلة لتهديب النفس.
- صلاح النفس ثمرة للعبادة الحقة وليس علة لها.
- مقصد أصلي ومقاصد تابعة للعبادة.
- استكبار عن عبادة الله.
- صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق.
- عبادة المؤمن لونه من الأخلاق. . وأخلاقه لونه من العبادة.

obeikandi.com

● لماذا نعبد الله؟

عرفنا أن رسالة الإنسان في الوجود هي عبادة الله وحده .

وعرفنا أن العبادة هي غاية الخضوع الممزوج بغاية الحب لله .

وعرفنا أن العبادة - في الإسلام - ، تشمل الدين كله ، وتسع الحياة بمختلف جوانبها.

وبقي هنا سؤال قد يسأله بعض الناس. وهو: لماذا نعبد الله تعالى؟ وبعبارة أخرى: لماذا فرض الله علينا عبادته وطاعته وهو الغني عنا؟ وما الغاية من تكليفنا هذه العبادة؟ هل يعود عليه - سبحانه - نفع من عبادتنا له ، وخشوعنا لوجهه؟ ووقوفنا ببابه ، وانقيادنا لأمره ونهيه جل شأنه؟ أم النفع يعود علينا نحن المخلوقين؟ وما حقيقة هذا النفع إن كان؟ أم الهدف هو مجرد الأمر من الله والطاعة منا؟

والجواب: أنه - تبارك اسمه - لا تنفعه عبادة من عبده ، ولا يضره إعراض من صد عنه. ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين ، ولا ينقصه جحود الجاحدين. فهو الغني ونحن الفقراء إليه ، وهو الودود الكريم ، والبر الرحيم ، الذي لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا نحن المخلوقين. فضلاً عن حقه - تعالى - في أن يفرض علينا ما يشاء ، يكلفنا ما يريد. بحكم خلقه لنا وإنعامه علينا. وبحكم عبودتنا الطبيعية القسرية له سبحانه ، فهو لا يكلفنا إلا بما ينفعنا نحن ويصلحنا نحن المحتاجين إليه في كل نفس من أنفاس حياتنا ، وهو الغني غنى ذاتياً. إذ كيف يحتاج الخالق إلى من خلق؟

وقد أخبرنا على لسان سليمان في القرآن: ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢] وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَاسِبٌ أَلْبَسَتْ مِنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال تعالى: ﴿ بَنِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً^(١).

وإذا كان الله سبحانه له هذا الغنى المطلق فلماذا إذن كلف عباده أن يعبدوه ويطيعوه؟ وأظن - بعد أن يعرف الإنسان جواب الأسئلة الخالدة: من أين، وإلى أين ولم - أن من السهل أن يعرف جواب هذا السؤال. إنه كامن في طبيعة الإنسان نفسه، وطبيعة مهمته في الأرض، والغاية التي أُعد لها من وراء هذه الحياة.

● العبادات غذاء للروح

(أ) فالإنسان ليس هو هذا الغلاف المادي الذي نحسه ونراه، والذي يطلب حظه من طعام الأرض وشرابها. ولكن حقيقة الإنسان في ذلك الجوهر النفيس الذي به صار إنساناً مكرماً سيداً على ما فوق الأرض من كائنات. ذلك الجوهر هو الروح. الذي يجد حياته وزكاته في مناجاة الله عز وجل. وعبادة الله هي التي توفر لهذا الروح غذاءه ونماءه، وتمده بمدد يومي لا ينفد ولا يغيض.

ولئن تراكم على هذا الجوهر المعنوي الغفلة والغرور، وران عليه صدأ الجحود أو الشك، لقد تهب عواصف المحن فتزيح الغبار، أو تندلع نار الشدائد فتجلو الصدأ. وسرعان ما يعود الإنسان إلى ربه فيدعوه ويتضرع إليه. وهذه حقيقة ذكرها القرآن، وأبدتها وقائع الحياة: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَبِّحُكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحْتُمْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

إن القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله، وهو شعور أصيل صادق لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود، وهذا ما تقوم به العبادة إذا أدت على وجهها.

(١) رواه مسلم.

يقول ابن تيمية رحمه الله :

«القلب فقير بالذات إلى الله من جهتين : من جهة العبادة . . . ومن جهة الاستعانة والتوكل . . فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ، ولا يلتذ ولا يطيب ، ولا يسكن ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه وحده ووجهه والإنابة إليه . ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه - بالفطرة - من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه . وبذلك يحصل له الفرح والسرور ، واللذة والنعمة ، والسكون والطمأنينة . وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له؛ فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله ، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهي ويريده ولم يحصل له عبادة لله ، فلم يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله بحيث يكون الله هو غاية مراده ، ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله ، لا يحب شيئاً لذاته إلا الله»^(١) .

وهكذا كلما أخلص المرء العبودية لله وجد نفسه ، واهتدى إلى سر وجوده ، ووجد مع ذلك سعادة روحية لا تدانيها سعادة . . تتمثل فيما سماه الرسول «حلاوة الإيمان» .
وإن لهذه الحلاوة لطعمًا لا يتذوقه إلا من عرف الله ، وآثره على كل ما سواه .

قال ابن القيم رحمه الله^(٢) : «إنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها ، فهو إلهها ومعبودها ، ووليها ومولاها ، وربها ومدبرها ورزقها ومميتها ومحيتها ، فمحبته نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وسرور النفوس؛ وقوت القلوب ، ونور العقول ، وقرّة العيون ، وعمارة الباطن» .

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة ، والعقول الزاكية ، أحلى ولا أذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه . والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة ، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم ، واللذة التي

(٢) إغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٩٧ .

(١) العبودية ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

تناه أعلى من كل لذة. كما أخبر بعض الواصلين عن حاله بقوله : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله وحببه له.

وقال آخر : مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها فقيل له : وما هو؟ قال : محبة الله والأنس به ، ومثل هذا ما قاله الآخر : أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبهه. وأطيب ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة.

وقال آخر - من أهل معرفة الله وطاعته - : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف!

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها ، بحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه ، وكلما كانت المحبة أكمل ، وإدراك المحبوب أتم ، والقرب منه أوفر ، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف ، وفيه أرغب ، وله أحب ، وإليه أقرب ، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد ، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حباً لغيره ، ولا أنسا به ، وكلما ازداد له حباً ازداد له عبودية وذللاً ، وخضوعاً ورقاً له ، وحرية عن رق غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا ينعم ولا يتتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحببه ، والإنابة إليه ، وكلما تمكنت محبة الله من القلب ، وقويت فيه أخرجت منه تأله لما سواه وعبوديته له :

فأصبح حراً عزة وصيانة على وجهه أنواره وضيأوه

وقال الإمام فخر الدين الرازي :

«اعلم أن من عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها ، وثقل عليه الاشتغال بغيرها».

وبيانه من وجوه :

الأول: أن الكمال محبوب بالذات ، وأكمل أحوال الإنسان اشتغاله بعبادة الله ، فإنه يستنير قلبه بنور الإلهية ، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة ، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله ، وهذه الأحوال أشرف المراتب الإنسانية ، والدرجات البشرية. فإذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الإنسانية في الحال ، وهي موجبة أيضًا لأكمل السعادات في الزمان المستقبل ، فمن وقف على هذه الأحوال ، زال عنه ثقل الطاعات ، وعظمت حللوتها في قلبه.

الثاني: أن العبادة أمانة ، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات. ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني؛ قال بعض الصحابة: رأيت أعرابيًا أتى باب المسجد فنزل عن ناقته وتركها ودخل المسجد ، وصلى بالسكينة والوقار ودعا بما شاء ، فتعجبنا ، فلما خرج لم يجد ناقته ، فقال: أدت أمانتك فأين أمانتي؟! قال الراوي: فردنا تعجبًا! فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته. . وسلم الناقة إليه.

قال الرازي: والنكته أنه لما حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته ، وهو المراد من قوله عليه السلام لابن عباس: «احفظ الله. . . يحفظك.»^(١).

الثالث: أن الاشتغال بالعبادة انتقال من عالم الغرور إلى عالم السرور. ومن الاشتغال بالخلق إلى حضرة الحق ، وذلك يوجب كمال اللذة والبهجة. يحكى عن أبي حنيفة أن حية سقطت من السقف وتفرق الناس ، وكان أبو حنيفة في الصلاة ولم يشعر بها. . . ومن استبعد هذا فليقرأ قوله تعالى في قصة يوسف - ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣١]. فإن النسوة لما غلب على قلوبهن جمال يوسف عليه السلام ، وصلت تلك الغلبة إلى حيث قطعن أيديهن وما شعرن بذلك. فإذا جاز هذا في حق البشر فلأن يجوز عند استيلاء عظمة الله على القلب أولى. ولأن من دخل على ملك مهيب فربما مر به أبواه

(١) رواه الترمذي .

وبنوه وهو ينظر إليهم ولا يعرفهم، لأن استيلاء هيبة ذلك تمنع القلب عن الشعور بهم. فإذا جاز هذا في حق ملك مخلوق، فلأن يجوز في حق خالق العالم أولى^(١).

وبهذا نتبين أن الذي يذوق طعم الإيمان الحق، وتزهر في قلبه مصابيح اليقين، لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرد خضوع أو «تنفيذ أوامر» فحسب، إنه يجد فيها تلذذاً بمناجاة الله وطاعته، والسعي في مرضاته، ويجد فيها سعادة لا تدانيها سعادة أصحاب القصور والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. وقد كان النبي ﷺ ينتظر فريضة الصلاة انتظار الظمان اللهف إلى شربة الماء العذب الزلال، ويهرع إليها كما يهرع السائر في الصحراء إلى الواحة الخضراء. وكان يقول لبلال - في شوق ولهفة - إذا حان وقتها: «أرحنا بها يا بلال»^(٢). وقالت زوجته عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه. فلا عجب أن يقول عليه السلام: «جعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٣).

إن المؤمن ليجد في عبادة ربه في ساعة الشدة، سكينه لنفسه، وأنسا لوحشته، وانسراحاً لصدره، وتخفيفاً عن كاهله، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنفَكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]. فدلّه على العبادة إذا ضاق صدره بأقاول المتقولين، وأكاذيب المفتريين.

وفي ساعة المنحة والنعمة يتذوق المؤمن حلاوة الشكر للمنعم، والحمد لذي الجلال والإكرام. وما أروع خطاب الله لنبيه في مثل هذا الموقف: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر].

(١) التفسير الكبير للرازي ج ١ ص ٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي.

● العبودية لله سبيل الحرية

(ب) ثم إن العبودية الخالصة لله هي - في واقع الأمر - عين الحرية. وسبيل السيادة الحقيقية، فهي - وحدها - التي تعتق القلب من رق المخلوقين، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت التي تستعبد الناس وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد، وإن ظهروا - صورة وشكلًا - بمظهر السادة الأحرار!

ذلك أن في قلب الإنسان حاجة ذاتية إلى رب، إلى إله، إلى معبود، يتعلق به، ويسعى إليه، ويعمل على رضاه، فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله الواحد الأحد، تخطط في عبادة آلهة شتى وأرباب أخر. مما يرى وما لا يرى، وممن يعقل، وما لا يعقل، ومما هو موجود وما ليس بموجود، إلا في الوهم والخيال.

وليس أشرف للإنسان العاقل من أن يعبد من خلقه فسواه فعدله، ويطرح عبادة كل ما سواه ومن سواه.

وليس أجلب لسعادته وسلام ضميره من توجيه همه إلى إله واحد يخصه بالخضوع والحب، فلا تتوزع قلبه الآلهة والأرباب المزيفون ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّوْنَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ [الزمر: ٢٩].

فالعبد السالم لسيد واحد قد استراح: إذ عرف ما يرضي سيده فأداه بارتياح وانسراح. أما العبد الذي يملكه شركاء متشاكسون يأمره أحدهم بعكس ما يأمره غيره، فما أتعسه وما أشقاه!

يقول ابن تيمية:

«وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره. فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء حارث وهمام» فالحارث: الكاسب الفاعل، والهَمَام: فعَّال من الهم. والهم أول الإرادة. فالإنسان له إرادة دائمًا. وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه. فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب: إما المال،

وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذها إلهًا من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان، وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابًا، أو غير ذلك مما عبد من دون الله.

وإذا كان عبدًا لغير الله يكون مشركًا، وكل مستكبر فهو مشرك. ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكبارًا عن عبادة الله، وكان مشركًا. قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢٧) - يعني فرعون - إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٢٧ - ٣٥].

وقد وصف فرعون بالشرك في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَ مُوسَىٰ وَقومُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُوعًا﴾ [الأعراف: ١٢٧].

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا عن عبادة الله. كان أعظم إشراكًا بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقرًا وحاجة إلى المراد المحبوب الذي هو مقصود القلب بالقصد الأول، فيكون مشركًا بما استعبده من ذلك.

«ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا لله ولا يبغض شيئًا إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فكلما قوي إخلاص دينه لله، كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات. وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك»^(١).

● العبادة ابتلاء إلهي يصقل الإنسان

(ج) والحياة التي نحياها هذه - طالت أو قصرت - ليست هي الغاية ولا إليها المنتهى، وما هي إلا محطة انتقال إلى حياة أخرى ودار أخرى؛ حياة البقاء، ودار الخلود. وفي بعض الآثار: «إنكم خلقتُم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار» وقال الشاعر:

(١) العبودية: ص ١١٢ - ١١٤.

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي
فالمعول عليه إذن إنما هو الدار الأخرى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ^٤
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والإنسان في هذه الدار الفانية إنما يستصلح لتلك الدار الباقية. يستخلفه الله هنا ليعد
ويصقل للخلود هناك. ولا شيء يصقله ويهذبه ويعدده مثل الابتلاء، فهو البوتقة التي تصهر
فيها النفس ويصفو الروح.

فقد شاء الله أن يخلق الإنسان نوعًا متميزًا على غيره، بما ركب فيه من عناصر
مزدوجة، يمكن أن تصعد به إلى السماء، وأن يهبط بها إلى الأرض، ففيه الغريزة
والشهوة، وفيه العقل والإرادة؛ فيه المادة، وفيه الروح، وقد دل هذا الخلق على أن
الإنسان مسئول ومبتلى. وهذا هو السر في استعداده لحمل المسؤولية، وأمانة التكليف
الإلهية التي عبّر عنها القرآن تعبيرًا بديعًا فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

لقد كان ما أوتي الإنسان من عقل وإرادة وضمير واستطاعة، وما يُسرّ له من أسباب،
نعمة عليه أي نعمة، وتكريمًا له أي تكريم، ولكنها كانت تحمل في طيها ابتلاء له أي
ابتلاء: أي شكر أم يكفر؟ أي طيع ربه أم يتمرد عليه؟

وهكذا ذكر القرآن الكريم أن الله سبحانه إنما خلق السموات والأرض، وخلق الموت
والحياة، وزين الأرض بما عليها؛ ليتلى عباده ويمتحنهم - وهو بهم أعلم - ليظهر من يريده
ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ② [الكهف: ٧].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

إن هذه الحياة الدنيا لا تعطي حصادها إلا لمن يزرعون ، ولا جناها إلا لمن يغرسون ، ولا ينال المرء فيها ما يحب إلا بصبره على ما يكره ، ولا يتحقق له أمل يصبو إليه إلا بعد أن يجتاز امتحانات عسيرة ، ويتحمل مشقات شديدة. ولذلك لا يطمع في إدراك المعالي وتحقيق الآمال الكبيرة إلا أولو العزم وأصحاب النفوس الكبيرة. وفي هذا يقول المتنبي :

ذريني أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إسر النحل!

هذا شأن حياتنا هذه القصيرة ، فكيف ب حياة الخلود؟ أيريد الإنسان أن يحظى بنعيمها ورضوان الله فيها ، ويسعد بالنظر إلى وجهه الكريم ، دون جهد ولا ابتلاء ودون أن يسعى لها سعيها؟ إذن يستوي القاعدون والمجاهدون ، يستوي الكسالى والعاملون ، يستوي الطالحون والصالحون. وهم في عدالة الله لا يستوون! !

لقد عرفنا من عدالة السنن الإلهية في الكون أن الشيء النفيس لا يدرك إلا بجهد كبير ، وكلما كانت نفاسته أظهر ، احتاج إلى جهد أكبر ، فهل هناك شيء أنفس وأعظم من الآخرة الباقية ، من الحياة الأبدية ، من رضوان الله تعالى؟ لا والله. ولهذا حُفت الجنة بالمكاره ، ومُلئ طريقها بأشواق الابتلاء.

ومن هنا قال الإنجيل : «ما أضيقت الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية!» وما ضيقه إلا تكاليف العبودية والتزامات الإيمان.

وقال القرآن العظيم : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢].

● العبادة حق الله على عباده

(د) والعبادة - فوق ذلك كله- هي حق الخالق -جل شأنه- على خلقه.

وفي ذلك روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي : يا معاذ . أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً».

وليس بمستنكر أن يكون لله علينا حق عبادته وحده سبحانه، بل المستنكر أن يكون غير هذا. . المستنكر أن نعبد ما دون الله أو من دون الله، فنؤدي الحق لغير أهله. أو نزعم لأنفسنا الاستقلال عن الله فنجد عبوديتنا له بغير حق.

إننا لم نكن شيئاً مذكوراً ثم كنا : خرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود، ثم كنا نوعاً مكرماً من الخليفة: خُلِقْنَا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَصُوِّرْنَا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، وَعُلِّمْنَا الْبَيَانَ، وَأَوْتِينَا الْعَقْلَ وَالْإِرَادَةَ، وَسَخَّرْتَ الْكَائِنَاتِ حَوْلَنَا لِعِدْمَتِنَا: الأَرْضُ لَنَا مَهَادٌ وَفِرَاشٌ، وَالسَّمَاءُ لَنَا سَقْفٌ وَبِنَاءٌ، وَالشَّمْسُ تَمُدُّنَا بِالضَّوِّ وَالْحَرَارَةَ، وَالْكَوَاكِبُ تَهْدِينَا وَتَزِينُ سَفِينَا، وَالْبَحَارُ تَجْرِي فِيهَا سَفَائِنَا بِأَرْزَاقِنَا، وَالْمَاءُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِيَكُونَ لَنَا شَرَابًا طَهُورًا، وَنَسْقِي مِنْهُ أَنْعَامًا وَأَنْعَامًا كَثِيرًا.

ترى من الذي فعل ذلك كله؟ أما نحن فلم نخلق أنفسنا ولم نصنع ذرة مما حولنا. . ولم يدع بشر ولا جن ولا ملاك : أنه صانع ذلك ومدبره. . فمن هو صاحب العلم الواسع والحكمة البالغة والقدرة القاهرة والإرادة الفعالة. . الذي صنع هذا الكون الدقيق فأحكمه، ورتبه فأحسنه؟ والذي خلق الإنسان فأحسن خلقه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة؟

إنه الله الذي شهدت بربوبيته الفطر السليمة، وأقرت بوجوده وكماله ووحدانيته العقول النيرة ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿؟﴾ [المؤمنون : ٨٤ - ٨٩].

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ (٣٦) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ أَلْحَقُ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿؟﴾ [يونس : ٣١ ، ٣٢].

فلا عجب أن يكون لهذا الخالق المنعم حق العبادة والاستعانة به والابتهاج إليه، والوقوف

بإبه الكريم موقف الضراعة والتسليم والانقياد ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى
وَالَّذِي ﴿٢﴾ قَدَرَفَهْدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمُ غَشَاءً أَحْوَى ﴿[الأعلى: ١ - ٥]﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٦) الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا
لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢١، ٢٢]﴾.

هذه العبادة إذن هي حق الربوبية على العبودية، حق الخالق على الخلق، حق الكريم
الذي أحسن وأنعم على من أحسن إليه وأنعم عليه.

ألا إن من كنود الإنسان لربه، وظلمه لنفسه، أن يشكر للخلق ولا يشكر للخالق، وأن
يأسره إحسان من أحسن إليه من الناس ولا يأسره إحسان الله إليه، وهو يغمره من قرنه إلى
قدمه، من يوم أن كان نطفة فعلقة فمضغة، إلى ما شاء الله من أطوار الحياة! وقرأ إن شئت
قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْأَنْهَارَ﴾ (٣٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٣)
وَأَتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ
كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

وظلم الإنسان وكفرانه هو الذي عجب منه ربنا في الحديث القدسي: «إني والجن
والإنس في نأ عظيم: أخلق ويعبد غيري! وأرزق ويشكر سواي! خيري إلى العباد نازل،
وشرهم إلي صاعد! أتجب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، فيتعرضون إلي بالمعاصي وهم
أفقر شيء إلي!»!

فالله الخالق المنعم هو المستحق للعبادة وحده، أما ما دون الله فلا يستحقون عبادة
الإنسان وهم مثله مخلوقون مرزوقون مربوبون! ولهذا قال ابن سيده فيما نقلناه في أول
الكتاب: «العبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة
والفهم والسمع والبصر... لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له

أعلى جنس من النعمة - وهو الله - فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله».

وبهذا كله نعلم أن العبادة مطلوبة في الدين طلب الغايات والمقاصد ، لا طلب الأدوات والوسائل. أعني أنها في الدرجة الأولى : امتثال لأمر الله ووفاء بحقه سبحانه. فهي مطلوبة لذاتها ، قبل أي شيء آخر في هذه الحياة.

● العبادة طلبًا للثواب وخوفًا من العقاب

هل يجوز أن يُعبد الله طمعًا في ثوابه وخوفًا من عقابه؟ بعبارة أخرى : طلبًا لجنته ، وهربًا من ناره؟

لقد شئع الصوفية على من عبد الله بهذا القصد. وقالوا: لا ينبغي للعابد أن يعبد الله ويقوم بأمره ونهيه ، خوفًا من عقابه أو طمعًا في ثوابه. فإن مثل هذا العابد واقف مع غرضه وحظ نفسه ، ومجبة الله حقًا تأتي ذلك وتنافيه. فإن المحب لا حظ له من محبوبه ، فوقوفه مع حظه علة في محبته ، كما أن طمعه في الثواب تطلع إلى أنه يستحق بعمله على الله تعالى أجره. وفي هذا آفتان : تطلعه إلى الأجرة ، وإحسان ظنه بعمله. ولا يخلصه من ذلك إلا تجريد العبادة والقيام بالأمر والنهي من كل علة ، بل يقوم به تعظيمًا للأمر الناهي ، وأنه أهل أن يُعبد وتُعظم حرمانه. فهو يستحق العبادة والتعظيم والإجلال لذاته. كما في الأثر الإلهي : «لو لم أخلق جنة ولا نارًا. أما كنت أهلًا أن أعبد؟»⁽¹⁾ ومنه قول القائل :

هب البعث لم تأتنا رسله وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق ثناء العباد على المنعم؟

فالنفس الزكية العلية تعبده ، لأنه أهل أن يُعبد ، ويُجل ويُحب ويُعظم ، فهو لذاته مستحق للعبادة. قالوا : ولا يكون العبد مع ربه ، كأجير السوء : إن أُعطي أجره عمل ، وإن لم يُعط لم يعمل. فهذا عبد الأجرة ، لا عبد المحبة والإرادة.

ولهذه يروون عن رابعة الأبيات المشهورة :

كلهم يعبدون من خوف نار ويرون النجاة حطًا جزيلًا

(1) ذكر ابن القيم في المدارج : إنه أثر إسرائيلي .

أوبأن يدخلوا الجنان فيحظوا بنعيم ويشربوا سلسبيلًا
ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لأبتغي بحبي بديلًا

ومن علماء المسلمين من رد هذا الكلام. واعتبره من شطحات القوم ورعوناتهم ، ولم ير أي حرج أو نقص في عبادة الله خوفًا وطمعًا ، ورغبًا ورهبًا. واحتج هؤلاء العلماء بأحوال الأنبياء والرسل الصديقين والصالحين ، ودعائهم والثناء عليهم - في كتاب الله - بخوفهم من النار ، ورجائهم للجنة. كما قال تعالى في خواص عباده الذين عبدتهم المشركون ودعواهم من دون الله أو مع الله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

وذكر سبحانه عباده الذين شرفهم بالإضافة إلى اسمه «الرحمن» فسامهم «عباد الرحمن» وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم ، فجعل منها : استعاذتهم به من النار ، فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ [الفرقان: ٦٥ ، ٦٦].

وأخبر عنهم أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار ، فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ [آل عمران: ١٦]. فجعلوا أعظم وسائلهم إليه ، وسيلة الإيمان ، أن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولى الألباب : أنهم كانوا يسألونه جنته ، ويتعوذون به من ناره ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ ﴿١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٥ - ١٩٠].

ولا خلاف أن الموعود به على السنة رسله هو الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّبَاتِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾

[الشعراء : ٨٢ - ٨٧].

فسأل الله الجنة واستعاذ به من النار وهو الخزي يوم البعث.

وأخبرنا سبحانه عن الجنة : أنها كانت وعدًا عليه مسئولًا ، أي يسأله إياها عباده وأوليائوه.

وأمر النبي ﷺ أمته أن يسألوا له في وقت الإجابة -عقيب الأذان- أعلى منزلة في الجنة ، وأخبر أن من سألها له حلت عليه شفاعته.

وقال له سليم الأنصاري : «أما إني أسأل الله الجنة ، وأستعيز به من النار ، لا أحسن دندنتك ، ولا دندنة معاذ! فقال ﷺ : «أنا ومعاذ حولها ندندن»!.

وفي الصحيح ، في حديث الملائكة السائرة : أن الله تعالى يسألهم عن عباده -وهو أعلم بهم- فيقولون : أتيناك من عند عبادك يهللونك ويكبرونك ويحمدونك ، ويمجدونك. فيقول عز وجل : وهل رأوني؟ فيقولون : لا ، يا رب ، ما رأوك. فيقول عز وجل : كيف لو رأوني؟ ! فيقولون : لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيدًا. قالوا : يا رب ، ويسألونك جنتك. فيقول : هل رأوها؟ فيقولون : لا. وعزتك ما رأوها. فيقول : فكيف لو رأوها؟ ! فيقولون : لو رأوها لكانوا لها أشد طلبًا. قالوا : ويستغيثون بك من النار. فيقول عز وجل : وهل رأوها؟ ! فيقولون : لا ، وعزتك ما رأوها ! فيقول : فكيف لو رأوها؟ ! فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد منها هربًا. فيقول : إني أشهدكم أنني قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأعدتهم مما استعاذوا!.

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده -تعالى- وأوليائه بسؤال الجنة ودرجاتها ، والاستعاذة من النار والخوف منها.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: «استعيذوا بالله من النار» وقال لمن سأله مرافقته في الجنة: «أعني على نفسك بكثرة السجود».

قالوا: والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار، مقصود الشارع من أمته، ليكونا دائماً على ذكر منهم. فلا ينسونهما. ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة. والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار، هو محض الإيمان.

وقد حض النبي ﷺ أصحابه وأمته على طلب الجنة، فوصفها وجلاها لهم ليخطبوها. وقال: «ألا مشمّر للجنة؟ فإنها - ورب الكعبة - نور يتلأأ، وريحانة تهتز، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة، وقصر مشيد، ونهر مطرّد». الحديث. فقال الصحابة: يا رسول الله.. نحن المشمرون لها. فقال: «قولوا: إن شاء الله».

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله ﷺ: «من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة» تحريصاً على عمله لها، وأن تكون هي الباعثة على العمل، لطال ذلك جداً. وذلك في جميع الأعمال.

فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولاً، والرسول ﷺ يحرض عليه؟! قالوا: وأيضاً، فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته، ويستعيذوا به من ناره، فإنه يحب أن يُسئل. ومن لم يسأله يفضب عليه. وأعظم ما سئل «الجنة» وأعظم ما استعيذ به من «النار».

قالوا: وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه، والهرب من هذه، فترت عزائمه، وضعفت همته، وهي باعته، وكلما كان أشد طلباً للجنة وعملاً لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق.

قالوا: ولو لم يكن هذا مطلوباً للشارع، لما وصف الجنة للعباد، وزينتها لهم، وعرضها عليهم، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مجملاً، تشويقاً لهم إليها، وحثاً لهم على أن يسعوا لها سعيها^(١).

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ج ٢ ص ٧٥ - ٧٩، مطبعة السنة المحمدية.

على أن الإمام ابن القيم وقف موقفًا وسطًا بين الصوفية وبين من رد عليهم وخطأهم من علماء الأمة فقال - بعد أن حكى قول أولئك ورد هؤلاء :

«والتحقيق أن يقال : الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه. والطعام والشراب ، والحدود العينية ، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة ، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة : التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه. وقرّة العين بالقرب منه وبرضوانه. فلان نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدًا. فأيسر يسير من رضوانه ، أكبر من الجنان وما فيها من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] وأتى به منكرًا في سياق الإثبات ، أي : أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يكفي ، ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح - حديث الرؤية - «فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجهه». وفي حديث آخر : «إنه سبحانه إذا تجلى لهم ، ورأوا وجهه عيانًا ، نسوا ما هم فيه من النعيم ، وذهلوا عنه ولم يلتفتوا إليه».

قال ابن القيم : ولا ريب أن الأمر هكذا ، وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال ، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة ، فإن المرء مع من أحب. فأني نعيم ، وأي لذة ، وأي قرّة عين ، وأي فوز ، يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرّة العين بها؟ وهذا والله هو العلم الذي شمر إليه المحبون ، واللواء الذي أمّه العارفون ، وهو روح مسمى الجنة وحياتها ، وبه طابت الجنة ، وعليه قامت.

فكيف يقال : لا يُعبد الله ، طلبًا لجنته ، ولا خوفًا من ناره؟

وكذلك النار أعادنا الله منها. فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانتة ، وغضبه وسخطه ، والبعد عنه ، أعظم من التهاب النار في أجسامهم.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصدّيقين والشهداء والصالحين هو: الجنة، ومهرّبهم: من النار»^(١). اهـ.

● هل العبادة مجرد وسيلة لتهديب النفس؟

وهناك دعوة خبيثة شريرة يروجها بعض الملحدين المستكبرين عن عبادة الله، فتجد هؤلاء يستغلون ما جاء به الدين نفسه من رد العبادة السطحية المرائية التي لا تنفذ إلى القلب، ولا تزكى النفس، لا تنهى عن فحشاء أو منكر- يستغلون هذا ليقولوا: إن الغرض من الأديان وعقائدها وعباداتها إنما هو إصلاح النفس وتربية الضمير، واستقامة الخلق. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة بأي وسيلة أخرى كالتهديب النفسي المجرد، والتربية الأخلاقية المدنية، فلسنا بحاجة إلى العبادة والشعائر والصلوات والمناسك، فإنما هذه وسائل لا غايات. وقد انتهينا إلى الغاية التي يريدنا الله منا، فما تشبثنا بالوسيلة وما حاجتنا إليها؟ هذه هي الدعوة الجاحدة الماكرة التي ذهب إليها بعض المتفلسفين قديمًا وبعض المنحرفين حديثًا. وهي دعوة باطلة يراد بها باطل.

● صلاح النفس ثمرة للعبادة الحقّة وليس علة لها

أما أنها دعوة باطلة، فلأن العبادة مطلوبة لذاتها، وغاية في نفسها، بل هي - كما أوضح القرآن- مراد الله من خلق المكلفين إنسًا وجنًا، بل هي الغاية وراء خلق السموات والأرض ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْمَوْا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) ﴿[الذاريات: ٥٦].

والمقصود الأول من العبادة - كما ذكرنا- هو أداء حق الله عز وجل.

والمقصود بالعبادة أن يعرف الإنسان نفسه فقيرًا لا حول ولا قوة له إلا بربه، ولا اعتماد له إلا عليه، ولا قيام له بذاته، ويعرف ربه عليًا كبيرًا، غنيًا عن العالمين ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنَّهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) ﴿

(١) مدارج السالكين ج ٢ ص ٨٠، ٨١.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧].

إظهار العبودية لرب العالمين ، وامثال أمره سبحانه فيما تَعَبَّدَ به خلقه هو علة العبادات كلها من صلاة وصيام ، وزكاة وحج وتلاوة وذكر ودعاء واستغفار واتباع للشريعة ، والالتزام بأحكام الحلال والحرام. أما صلاح النفس وزكاة الضمير واستقامة الأخلاق ، فهي ثمرة لازمة للعبادة الحقة؛ وليست علة غائية لها ، لهذا قال تعالى : ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]
فالتعبير بـ «لعل» هنا التي تفيد الترجي - دون التعبير بلام التعليل أو «كي» - يفيد أن العبادة أو الصيام تجعلهم على رجاء التقوى وتعددهم لها.

وحتى لو ذكر التعليل صريحًا ما أفاد ذلك ترك العبادة إذا لم تؤد إلى التقوى ، وإنما تفيد إعادة النظر في العبادة وإحسانها حتى تؤتي أكلها من تقوى الله وحشيتها. ولو فرضنا أن قلنا لفلاح : ازرع لتحصد ، فزرع ولم يحصد الحصاد المرجو ، لتقصيره في بعض ما كان واجبًا عليه أن يراعاه ، لم يكن معنى ذلك أن تقول له : اترك الزرع والغرس. مع أنه مهنته التي لا وظيفة له غيرها. وكل ما يقال له : ابذل جهدًا أكثر ، ووف عملك حقه من الإتقان ، لتحصل على ثمرة أفضل.

وهذا ما أجاب به الرسول الكريم ﷺ حين ذكروا له قومًا يصلون ولكنهم يقومون بأمرور لا تليق بمن يقيم الصلاة فقال لهم : إن صلاتهم ستنهاهم !

ولو أن إنسانًا صلى الصلوات الخمس أو صام رمضان مثلاً ولم يقصد في ذلك إلا تزكية نفسه ، وتربية خلقه ، دون الالتفات إلى حق الله عليه ، والقيام بواجب العبودية له جل شأنه ، ما كانت هذه الصلاة وذاك الصيام إعادة من العادات لا يؤبه لها في ميزان الحق ، ولا تحظى بذرة من القبول عند الله.

● مقصد أصلي ومقاصد تابعة للعبادة

ذلك أن للعبادة - كما قال الإمام الشاطبي - مقصدًا أصليًا ومقاصد تابعة ، فالمقصد الأصلي فيها هو التوجه إلى الواحد المعبود ، وإفراده بالمقصد إليه في كل حال : ويتبع ذلك

قصد التعبد لنيل الدرجات في الآخرة أو ليكون من أولياء الله تعالى وما أشبه ذلك. ومن المقاصد التابعة للعبادة صلاح النفس، واكتساب الفضيلة.

قال الشاطبي: «فالصلاة مثلاً، أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه، بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له. قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] - يعني أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله أكبر وأعظم من نهيهما عن الفحشاء والمنكر، لأن ذكر الله هو المقصود الأصلي - وفي الحديث «إن المصلي يناجي ربه»^(١).

«ثم إن لها مقاصد تابعة كالنهي عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكد الدنيا، كما في الخير: «أرحنا بها يا بلال»^(٢) وفي الصحيح: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٣). وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة. وطلب الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي الفائدة العامة الخالصة، وكون المصلي في خفارة الله. وفي الحديث «من صلى الصبح لم يزل في ذمة الله»^(٤). ونيل أشرف المنازل قال تعالى: ﴿وَمَنْ آتَلَ فَتَهَجَّدَ بِهِ، نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فأعطي بقيام الليل المقام المحمود».

«وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية، وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية، وهي الانقياد والخضوع لله».

ولا حرج على المؤمن أن يطلب بعبادته الفوائد الأخروية من الفوز بالجنة والنجاة من النار. فإن هذا داخل تحت معنى الرجاء في مشيئة الله، والخشية من عذابه، وهو ضرب من العبودية لرب العالمين، والخوف والرجاء بهذا المعنى لا يقدر في الإخلاص لله - كما بيناه من قبل.

أما الفوائد الدنيوية فلا يجوز أن تكون الباعث الوحيد للعبادة، سواء أكانت مادية أم معنوية.

(٢) رواه الدارقطني وأبو داود.

(٤) رواه مسلم.

(١) رواه أحمد.

(٣) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي وليس في الصحيح.

وقد أنكر الراسخون من العلماء ما كان يشيع في رحاب التصوف وبين بعض أتباعه ومريديه من التعبد بقصد تجريد النفس، وتصفيتها من الشواغل والعلائق، لتكون أهلاً للاطلاع على عالم الأرواح ورؤية الملائكة، وخوارق العادات، ونيل الكرامات، والحصول على «العلم اللدني» الموهوب من لدن الله. وما أشبه ذلك.

أنكروا هذا وقالوا: إنه خروج عن طريق العبادة، وتخصر على علم الغيب، ويزيد بأن جعل عبادة الله وسيلة إلى ذلك، وهو أقرب إلى الانقطاع عن العبادة؛ لأن صاحب هذا القصد داخل -بوجه ما- تحت قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. كذلك هذا؛ إن وصل إلى ما طلب فرح به وصار قصده من التعبد، فقوي في نفسه مقصوده وضعفت العبادة.

وإن لم يصل رمي بالعبادة، وربما كذب بنتائج الأعمال التي يهبها الله لعبادة المخلصين. وقد روي أن بعض الناس سمع بحديث: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينايع الحكمة من قلبه على لسانه»^(١) فتعرض لذلك لينال الحكمة، فلم يفتح له بابها. فبلغت القصة بعض الفضلاء، فقال: هذا أخلص للحكمة ولم يخلص لله!

والخلاصة أن كل دعوة تغفل المقصد الأصلي في العبادات وتهيل تراب النسيان عليه، وتشيد بالمقاصد الفرعية التابعة، وتسלט الأضواء عليها وحدها، هي دعوة باطلة؛ لأنها تضاد القصد الأول من العبادة، بل القصد الأول من الدين، بل القصد الأول من خلق الناس، بل من خلق السموات والأرض.

● استكبار عن عبادة الله

وأما ما وراء هذه الدعوة من أغراض خبيثة؛ فإن أربابها يطنون إحداداً وكفراً واستكباراً على الله، واستكافاً عن عبادته، ويخفون ذلك تحت ستار التحمس للأخلاق المجردة، والفضيلة الذاتية، كما يخفي السم الزعاف في الحلو والدمس. فما أجدر هؤلاء بوعيد الله:

(١) ذكره رزين في كتابه عن ابن عباس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

[النساء: ١٧٢، ١٧٣].

وما أجدر هؤلاء المتكبرين على الله أن يُحرموا من نور الهداية إلى الحق ، واستبانة طريق الرشد ، فإن الكبر يعمي ويصم ، وصدق الله : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

[الأعراف: ١٤٦].

إن الله تعالى ليس في حاجة إلى عبادة أحد من خلقه؛ فهو سبحانه غني عن العالمين. وعباد الله ليسوا قليلين ، فالكون كله يعبد الله بلغة نجهلها نحن البشر ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وحسبنا من العقلاء العابدين الملائكة في السموات السبع وفي كل مكان : ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ ، ٢٠] فأين موضع هؤلاء الذين حسبوا أنفسهم كبراء على عبادة الله؟ ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

● صفات المؤمنين بين العبادة والأخلاق

إننا لا ننكر أن للخلق والضمير مكانة أي مكانة في الإسلام ، وأن الخلق مقوم أصيل من مقومات الشخصية الإسلامية ، وأن أبرز ما أثنى به الله على محمد رسوله ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٤﴾ [القلم: ٤] وأن الرسول ﷺ قال في بعض أحاديثه : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١).

(١) رواه الحاكم وصححه .

لا ننكر شيئاً من هذا؛ وإنما الذي ننكره أن يقال: إن عبادة الله ما هي إلا أداة - مجرد أداة - لتربية ما أسموه الضمير. وليست هي الأداة الوحيدة؛ بل ليست الأداة المفضلة في نظر هؤلاء!

إننا ننكر أن يقوم فضل إنسان فلا يجعل لعبادة الله وزن في تقويمه وتقدير. وهذا ما حذر منه الرسول ﷺ وتنبأ به حين قال: «يأتي على الناس زمان يقال للرجل فيه: ما أظرفه! ما أعقله! ما أجده! وما في قلبه مثقال حبة من إيمان»^(١).

إننا نقرأ القرآن وهو يرسم صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة، فنجد العبادة أول معلم واضح فيها. ففي سورة المؤمنون يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون ١ - ٩].

فانظر كيف جعل أول أوصافهم الخشوع في الصلاة وآخراً أوصافهم المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزكاة وهي عبادة، مع الفضائل الخلقية الأخرى.

وفي سورة المعارج: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٤].

فهنا أيضاً بدأ بالصلاة وختم بها. وأضاف إليها التصديق بيوم الدين. والإشفاق من عذاب الله. بجوار الصفات الخلقية الأخرى.

(١) رواه البخاري.

وقد يبرز القرآن أحياناً جانب العبادة، وأحياناً جانب الأخلاق، لمناسبات واعتبارات توجب هذا الإبراز. ففي سورة الذاريات نجد العناية بالعبادة في وصف المتقين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِمِينَ﴾ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ النَّبِيِّينَ مَا يَهْتَمُّونَ ﴿١٧﴾ وَيَأْتِيهِمْ الْخُشْيَاءُ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٩].

وفي سورة الرعد نجد العناية بالجانب الأخلاقي في وصف أصحاب العقول: ﴿إِنَّمَا يَذَكِّرُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَفْضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٢].

ومع أن معظم الأوصاف هنا أخلاقية - لمناسبة أولى الأبواب - مثل الوفاء والصلة والصبر والإنفاق. . لكن الملحوظ فيها أنها ليست مجرد أخلاق «مدنية» وإنما هي أخلاق «دينية» أو «دينية». أخلاق فيها معنى العبادة والتقوى. فهم إنما يوفون «بعهد الله» وإنما يصلون «ما أمر الله به أن يوصل». وهم إنما يفعلون ويتركون لأنهم «يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» وهم إنما يصبرون «ابتغاء وجه ربهم» فهم في كل أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله، ويرجون اليوم الآخر.

ومن أراد الإنصاف والإصلاح فلينهج نهج القرآن الحكيم؛ حيث ينظم العقائد والعبادات والأخلاق والأعمال الطيبة كلها في سلك واحد ينتظم منه عقد جميل، هو صفات المؤمن البار التقي.

نجد ذلك فيما ذكرناه من آيات في سور شتى. وفي غيرها من السور «لوحات» كثيرة تصور لنا المؤمنين الصادقين، نكتفي منها باثنتين.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ

صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

جمعت الآية لهم بين العقيدة التي تتجلى في الإيمان بالله وما بعده وبين العمل الذي يتجلى في إيتاء المال على حبه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبين الأخلاق التي تتجلى في الوفاء والصبر.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهْتَابًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْبُؤُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْ عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُدَمَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَجْوَةً وَسَلَامًا ﴿الفرقان: ٦٣ - ٧٥﴾

وهي باقية جمعت كل الأوصاف الطيبة، وأغنت عن كل تعليق.

● عبادة المؤمن لون من الأخلاق.. وأخلاقه لون من العبادة

وخلاصة ما نقوله هنا: إن العبادة عند المؤمن نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم. وكلها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس.

ومن أجل ذلك نجد القرآن يعقب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين لله بمثل هذه الجملة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ﴿البقرة: ١٧٧﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿الحجرات: ١٥﴾، والصدق فضيلة خلقية خالصة، وإنما استحقوقها - بل جعلت مقصورة عليهم - لأن أعلى مراتب الصدق، وأثبتها وأبقاها هو الصدق مع الله رب العالمين.

وإذا كانت العبادة عند المؤمن لونها من الأخلاق المحمودة، فالأخلاق عنده لون من العبادة المفروضة.

فهي - كما ذكرنا - أخلاق ربانية، باعناها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله ومثوبته، فهو يصدق الحديث، ويؤدي الأمانة، ويفي بالعهد، ويصبر في البأساء والضراء وحين البأس، ويغيث اللهيف، ويعين الضعيف، ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويرعى الفضيلة في سلوكه - كل ذلك ابتغاء وجه ربه، وطلباً لما عنده تعالى. وقد تلونا في ذلك آيات من القرآن، ونكتفي هنا بما وصف الله به الأبرار من عباده من البذل والرحمة والإيثار، إذ قال: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنَاتٍ وَأَيْمَانًا وَإِسْلَامًا﴾ [الإنسان: ٨] ثم يكشف القرآن عن حقيقة بواعثهم، وطوايا نفوسهم، فيقول معبراً عن لسانهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِرًا ﴿ [الإنسان: ٩، ١٠].

ثم إن أخلاق المؤمن عبادة من ناحية أخرى، هي أن مقياسه في الفضيلة والرذيلة، ومرجهه فيما يأخذ وما يدع وأمر الله ونهيه.

فالضمير وحده ليس بمعصوم، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال^(١).

والعقل وحده ليس بمأمون، لأنه محدود بالبيئة والظروف. ومتأثر بالأهواء والنزعات، وفي الاختلاف الشاسع للفلاسفة الأخلاقيين في مقياس الحكم الخُلقي دليل واضح على ما نقول. والعرف لا ثبات له ولا عموم، لأنه يتغير من جيل إلى جيل، وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم.

لذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الذي لا يضل ولا ينسى، ولا يتأثر ولا يجور. وذلك هو حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وخلاصة الخلاصة: أن المؤمن لا يعبد الله ليكون بذلك فاضلاً، ولكنه يكون فاضلاً ليعبد بذلك الله، وبينهما فارق لو يعلمون عظيم!

(١) انظر بحث «خرافة الضمير بلا إيمان» في كتابنا «الإيمان والحياة» ص ٢٥٦.